معركة العربية في الجزائر

الدكتور محمود عبد المولى (تونس)

لقد حارب المستعمر ، حتى انموت ، اللغة العربية ، لانها اللغة الموحدة والمحررة لاقطار المغرب العربي ، وهي ايضا البؤرة الضخمة للعمل الفكري كله في ميدان الصراع بين مقومات الفكر العربي من جهة وبين عمليات التخريب الضخمة والمتعددة التي قام بها الاستعمار في ربوع مغربنا من أجل القضاء على خصوصياته القومية والثقافية ، وقد جرت هذه العمليات الاستعمارية على مراحل وبواسطة اجهزة متعددة وشارك فيها عدد كبير من الباحثين والمفكرين والمستشرقين ، همهم هو القيام بمؤامرة للقضاء على اللغة العربية ، (1) ففي الجزائر ، غلق الاستعمار جميع الفرص ، امام الجزائريين حتى لا يتمكنوا من تعلم لغتهم (2) ، وفرنس الادارة والاقتصاد والتعليم ثم حارب العقيدة الاسلامية وذلك بتحويل بعض المساجد الى كنائس (3) ، ويقول كاتب جزائري قبائلي في هذا الصدد في كتاب له بالفرنسية : «كان العدو الاستعماري ذكيا حين كان يهدم الجوامع ويحولها الى ثكنات أو اصطبلات ؟ ... كانت هذه معابد تهدم ويتم الخلاص منها الا ان الجامع كان ايضا الجامعة ، كما هي الزيتونة في تونس والقرويين في فاس ، وكما هو الازهر في القاهرة ، فهدم جامع كان يعني هدم مدرسة ومكتبة وقاعة للمحاضرات وبيت للشعب وجمعية استشارة او شورى ... ومتحف » (4) .

« وكان العدو الاستعماري بارع الذكاء في محاربته المستمرة المميتة للغة العربية ، اللغة الاجنبية : حين كان يغلق كل مدرسة عربية موجودة على بعد ثلاث كيلومترات من اية مدرسة فرنسية ، غايته تعليم بعض المفردات الكافية لادارة العمال الزارعين كما تعلم البقال بعض كلمات تجعل قيادتها اقل ازعاجا ، وكان العدو الاستعماري يدرك مدى الخطورة في ازدهار اللغة العربية الصحيحة ... فان تعلم الجزائريين لغتهم الام ، يعني تخلصهم من عار انهم « أطفال الساحة العامة » ايتام ، ولقطاء ، ومشردون ؟ يعني ايقاظ وعيهم بجدارتهم وكرامتهم (...)

---

(1) انور الجندي ، اللغة العربية بين حماتها وخصومها ... ص 228 .
(2) عثمان سعدي ، قضية التعريب في الجزائر ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت 1967 – ط 1 ، ص 37 .
(3) علال الفاسي : المغرب العربي – القاهرة – ص ص 71 .
(4) عمار ازيغان : الجهاد الافضل – ص 29 .

يعني أن تعاد للشباب الأعزب روحه الواثقة القوية الصافية ليدرك منشأ الفعل الانعكاسي الاستعماري ؟ مثلا عار الأروبية العرقية ، القاهرة التي ترفض أن ترقص مع عربي حتى لو كان ساحرا كادونيس « غربي فينيسيا » الذي عشقته فينوس .

ان تعلم اللغة العربية من جديد ، هو احياء التربية الطبيعية والعقلية والتاريخية التي تتيح لنا ان نكشف السبب في أن جبل الجرجورة الجبل الحديدي « الروماني الذي لم تصله قد سمى على قمم الأطلس في منطقة التل باسم « لا لا خديجة » الزوجة الاولى للنبي العربي وام المؤمنين . وهو ايجاد تفسير لهذا اللغز : لماذا تغلبت اللغة العربية على اللاتينية في افريقيا التي طبعت بطابع روماني » (5) .

ان هذه الشهادة المكتوبة اصلا بالفرنسية لترينا مدى اضرار سياسة الادماج الاستعماري بشعب الجزائر العربي ، ان هذه السياسة الفرنسية الغاشمة قد جرحت كبرياء هذا الشعب الأبي جراحات دامية ، وهذا ما جعل ردود فعله قوية كاشد ما تكون القوة ، وحادة كاشد ما تكون الحدة ، ان هذه السياسة الجهنمية التي خدشت وجرحت الضمير الاجتماعي لشعب الجزائر المسلم ، كان من نتائجها أن النضال الجزائري كان مليئا بالعنف وبردود الفعل الايجابية والسلبية في الوقت نفسه : بدا هذا النضال في اول الأمر بطيئا متمثلا في حركات الاصلاح الديني والاجتماعي والتربوي ، كانت هذه الحركات تحث الشعب على تأسيس المدارس والجوامع والجمعيات الثقافية للابقاء على لغته وعلى عقيدته حية ، ونمت هذه الحركات الاصلاحية نموا مطردا بعد تأسيس « جمعية العلماء المسلمين الجزائريين » منذ اكثر من ثلاثين عاما ، (6) كان منهاجها يتلخص في الصيغة الآتية : « الاسلام ديننا والعربية لغتنا ، والجزائر وطننا » ، وقد اتهمت الادارة الفرنسية وكذلك الحزب الشيوعي الفرنسي والصحافة الموالية لهما حركة جمعية العلماء (7) بأنها منظمة رجعية متعصبة تعمل لفائدة الملوك العرب ...

وفيما يخص معركة اللغة العربية « ارتفع عدد المدارس العربية بين 1943 و 1954 من بضع عشرات الى مائة وخمسين مدرسة (...) ولقد شاركت الحركة الاصلاحية مشاركة فعالة في اضعاف الاتجاه الذي يدعو الى الادماج الذي يقول به المثقفون المتفرنسون برئاسة الدكتور بن جلول ، ويقول مستشرق الماني نزيه ، كان بين ظهرانينا منذ ايام وهو الدكتور هورنباخ ، في هذا الصدد : « لقد تمتعت ، في العهد الفرنسي ، طبقة من الكتاب والمثقفين برعاية الفرنسيين وتربيتهم في الوقت الذي كانت الجماهير الأخرى تستغل اشنع استغلال » .

ولربما كان نجاح فرنسا اكبر مما كان لو انها علمت بأن هذه الفئة من المتفرنسين هي مستعدة لضم الجزائر الى فرنسا على شرط المساواة ؟ فقد فقدت هذه الفئة الايمان بوجود وطن عربي ، ويئست من استقلاله ، وتنازلت عن تاريخه وماضيه المجيد وبدات تساوم عليه ، لبيعه ، سياسيا (8) ، لكن العلماء تحت راية ابن باديس وقفوا لهم بالمرصاد حيث اعلن هذا المصلح منذرا ومحذرا « بأن الجزائر ليست فرنسية، ولا يمكن ان تكون ولا تريد ان تكون ، وان اللغة هي جزء لا يتجزأ من كيان الوطن وروحه » .

وفي سنة 1962 تم توقيع اتفاق « ايفيان » « Evian » لتطبيق النظام الفرنسي في المدارس العالية ، ان هذا التاريخ هو اوضح دلالة على نوايا الفرنسيين في ابقاء الجزائر تحت نفوذهم الثقافي واللغوي : لقد انتهج الجنرال ديغول منذ تسلمه لمقاليد الحكم في فرنسا سنة 1958 سياسة تعليمية في الجزائر على درجة كبيرة من الخطورة ، فبحكم تجاربه وحصافته السياسية ، رأى بثاقب رأيه ان استقلال

---

(5) المصدر السابق : ص 30 – 31 .

(6) من العلماء الجزائريين الشيخ عبد الحميد بن باديس ، والشيخ العقبي والشيخ الابراهيمي ، ومن الملاحظ ان الشيخ العقبي كان نائب رئيس جمعية العلماء التي تراسها الشيخ عبد الحميد بن باديس وقد ترك الجمعية عام 1939 ليتابع محاضرته في نادي التقدم في الجزائر .

(7) المصدر السابق – ص : 26 و 27 .

(8) القى الدكتور هورنباخ محاضرة حول الشاعر محمد العيد بتاريخ 5 مارس 1970 بالسفارة الالمانية وتناول بالتحليل نضال محمد العيد بشعره ، من اجل عروبة الجزائر .

الجزائر كمستعمرة فرنسية قد تجاوزهـا الزمـن واصبحت مهزلة مضحكة ، وانه من الواقعية والحكمة السعي لتطبيق سياسة من شانها ان تبقي على الجزائر ضمن مناطق نفوذها الثقافية الى جانـب التبعيـة الاقتصادية التي ليس من السهل على الجزائر التخلص منها ، وربما راى هذا السياسي العجوز المحنك ، ان التبعية الثقافية هي اهم وابقى من التبعية الاقتصادية في هذه الظروف ولربما تؤول في آخر المطاف الى تبعية ثقافية واقتصادية في الآن نفسـه ، فجعـل الجزائر ضمن مناطق نفوذ الثقافة الفرنسية ، معناه ، ابقاء مقاليد الأمور وازمة الحكم بين أيدي الجزائريين المثقفين ثقافة فرنسية والجاهلين بلغتهم وثقافتهـم القومية ، ومعناه ايضا ، دوام تبعية المدارس والمعاهد الجزائرية للمدارس والكليات الفرنسية مع ما يتبـع ذلك من دفع الجزائر الى انتداب اساتـذة واطارات فرنسية للعمل في مؤسسات الجزائر المختلفة ... وهذا مما يضمن بقاء التبعية الثقافيـة والتبعيـة الاقتصادية في نفس الوقت .

ويؤكد الأستاذ عثمان سعدي في هذا المعنى بأن المتفرنسين الذين يسيـرون الادارات الجزائريـة يؤلفون طبقة ممتازة بالجزائر ، سواء بالنسبة لطريقة تفكيرهم أو لطريقة معيشتهم » . وهذه الطبقة هـي التي ستعارض « الحتميـة التاريخيـة المسمـاة « التعريف » اي العودة الى شخصية الجزائر الأصلية التي تعتبر اهم مطلب شعبي ، وانتصـار سياسـة التعريب سيحول في نظر هذه الطبقة الى خطر يهدد وجودها وهذا مما يجعلها تحاربه بضراوة ، وتكافح من أجل الابقاء على تبعية الجزائر لفرنسا في جميع مظاهر الحياة » (9) .

فبمجرد مجيء ديغول الى الحكم ، كان أول مـا فعله ، هو تطبيق تلك السياسة التي المعنا اليها سابقا وهي تتمثل عمليا في انجاز تخطيط ثقافي واقتصادي يهدف الى نشر التعليم بين الجزائريـن وتنفيـذ مخططات اقتصادية واسعة « تعـود فوائدهـا لا على المستوطنين الفرنسيين فحسب ، كما كان متبعا من قبل ، بل على الجزائريين ايضا ، ونجحـت خطـة ديغول فبنيت آلاف المدارس وبرز «مشروع قسنطينة» الاقتصادي الى الوجود » (10) .

كانت سياسة ديغول في ظاهرها الرحمـة وفي مضمونها العذاب : كان يريد ان يثبـت للجزائريـن وللراي العام العالمي بأن سياسته ليست كسياسـة المعمرين التي عملت طوال قرن وربع قرن على اخذ كل شيء من الجزائريين واعطائهم النزر القليل في ميدان التمدن ، وانما كانت سياسته ، أو سياسة فرنسـا المجسدة في حكمة ، ترمي الى العمل من أجل خيـر الجزائريين باثرائهم ثقافيا وانعاشهم اقتصاديا ، لكن سياسة ديغول في الواقع كانت تهدف الى حقيقة اخرى يمكن ان توجز في العبارة التالية : « توسيع الخرق في الميدانيـن الثقافـي والاقتصـادي » امـام الجزائر المستقلة ، فهذه السياسة البارعة مكنـت ديغول خلال اربع سنوات : (1958 – 1962) من ان يجعل مشكلة التخلص من التبعية الفرنسية أمرا صعبا جدا بالنسبة للجزائر المستقلة ، لقد عمل كل شيء من اجل ابقاء الجزائر فرنسية الثقافة واللغة ، والديغوليون انفسهم لا ينكرون هذا الزعم ، يقول الوزير الفرنسي للشؤون الجزائرية خلال الحملة الإنتخابية الرئاسيـة آنذاك ما معناه : ان ديغول عمل من أجل تأخير تحقيق التعريف في الجزائر الى امد بعيد » (11) .

ففي خلال حكم ديغول حتى استقلال الجزائر ، اي خلال اربع سنوات ، تضاعف مرتين عدد التلامذة الجزائريين في التعليم الثانوي والاعدادي ، كما تضاعف عدد الطلبة الجزائريين في جامعة الجزائر ، في نفـس هذه المدة ، اربع مرات تقريبا ، وهذا دليل ساطع على مدى نجاح خطة ديغول البارعة في ميـدان التعليـم بالجزائـر .

ان سياسة الادماج على قوتهـا لم تستطـع ان تقضي على حرية الجزائر وعلى عروبتها ... بل ولدت توترا وعنفا في الكفاح من أجل تقرير المصير وكان ما كان من انتصار شعب الجزائر الذي خـرج من حرب سبع سنوات الضروس ، يوم 20 مارس 1962 ظافرا ، لان الجزائر بفضل جهاد ابنائها وعروبتها واسلامها ابت الا ان تكون دولة عربية اسلامية مستقلة ذات سيـادة ،

---

(9) قضية التعريب في الجزائـر ... ص. : 46 – 47 .
(10) نفـس المصـدر السابـق ... ص. : 48 .
(11) المصـدر السابـق – ص : 48 .

وقبل كل شيء دولة عربية مغربية ، لا جزءا لا يتجزأ من القومية الفرنسية كما توهم الاستعمار الفرنسي العجوز .

ولكن ... انتهت المعركة السياسية بنجاح وبقيت معركة اللغة والأصالة على قدم وساق .

ففي الجزائر اليوم تيارات ثقافية ولغوية مختلفة: فهناك من يحبذ الابقاء على اللغة الفرنسية ، وهناك من ينادي بالتعريب ، وهكذا تتضارب الآراء ويحتد النقاش ...

وهناك رجال مخلصون في الجزائر يعلمون أن الشعب الواحد لا يمكن أن تكون له الا لغة واحدة هي لغة اجداده وامجاده ، ويعلمون ايضا كل العلم ان الجزائر كادت أن تصبح فرنسية وتنفصم صلة الرحم بينها وبين شقيقتيها تونس والمغرب وكذلك الأمة العربية والاسلامية بأجمعها .

لقد ادركوا اليوم ، بدون مشقة ، بأن المحافظة على استقلال الجزائر يعني المحافظة على العربية ، والتفريط فيها ، يعني التفريط في استقلال الوطن وسيادته ، وبدأوا في الحين بمقاومة نزعة الفرنسية وذلك بالتعريب التدريجي واتاحة جميع الفرص امام الموظفين الجزائريين في الادارة لتعلم العربية مقابل مكافآت سخية في الترقية ... وكذلك باشتراط مستوى معين بالنسبة لكل من يتقدم الى العمل في ادارة الجزائر (12) ، بهذه الاجراءات بدأت الجزائر في تخليص نفسها من هيمنة اللغة الفرنسية وهي تقدر الصعوبات التي ستلاقيها في عملية التعريب : فعملية التعريب تقابل في أوساط مختلفة في الجزائر بشيء كثير من التحفظ لأنها قد تجر - في رايهم - الى انحطاط المستوى العلمي وعرقلة التطور بالاضافة الى الصعوبات النفسية الأخرى ، وما مطالبات الطلاب الجزائريين سنة 1963 والحاحهم على انتداب أساتذة فرنسيين لا عرب ... والمحافظة على المناهج التعليمية في الجامعة ... الا دليل على معارضة هؤلاء لعملية التعريب ، وهناك صوت آخر قوي يدعو الجميع الى التمسك بروح الثورة واتاحة المجال امام الجزائر لتطوير وتعريب شخصيتها كلف ذلك ما كلف من التضحيات والخسائر المادية .

ومن المعلوم بأن هناك فئة من الكتاب الجزائريين تشعر وتفكر بالعربية وتصوغ افكارها ، وخاصة في المجالات العالية ، باللغة الفرنسية ، وقد اندهش العالم من وجود هذا اللون من الأدب الغريب الذي يتزعمه جان عمروش (Jean Amrouche) وكاتب ياسين وميلود فرعون ، فلم يدر عمروش مثلا ماذا يكون امله في الحقيقة : اهو غلطة من غلطات التاريخ ؟ ام هول من اهوال الثقافة ؟ فهو يبحث عن وطن اجداده ولغتهم ، اما ميلود فرعون فقد كان معتدلا اذ انه يعتبر نفسه جزائريا قبائلي الأصل ، فرنسي اللسان والثقافة ، واما كاتب ياسين فهو اروعهم لانه يعترف بأن الطريق الصحيح للأدب في الجزائر هو أن يكون باللغة العربية وليس بالفرنسية على الرغم من عجزه عن الكتابة بالعربية .

---

(12) بمقتضى قرار مجلس الثورة ورئيسه هواري بومدين .